

# سُبْحَانَكَ يَا بِنَاءَ الْأُمَمِ

وَدَوَّرَ الْفَرْدَ فِيهَا

أربع شهور



مَجْمَعٌ وَرَقِيْبٌ

مِنْ خُطْبٍ وَمُحَاضِرَاتٍ فِضِيْلَةِ الشَّيْخِ

أَبِي عَبْدِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَلْمَانَ

حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا  
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا  
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل

عمران: ١٠٢].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا  
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ  
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

• أَمَا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ،  
وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ  
ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

• أَمَا بَعْدُ:

## بِنَاءُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ

فَالَّذِي يَتَأَمَّلُ فِي كِتَابِ رَبِّهِ - الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ - يَجِدُ أَنَّ سَبَبَ التَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ، إِنَّمَا هُوَ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا مِنْ شَوَابِ الشَّرْكِ، وَالْإِبْتِدَاعِ وَالْمُحَدَّثَاتِ مِنَ الْأُمُورِ.

وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَوْحِيدِ الْمُتَابَعَةِ لِلْمَعْصُومِ ﷺ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَوْحِيدِ الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْحِيدِ الْمُتَابَعَةِ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَذَا فَلَا تَمَكِينَ فِي الْأَرْضِ.

وَالْإِسْلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ:

\* أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ.

\* وَأَلَا نَعْبُدُهُ تَعَالَى إِلَّا بِمَا شَرَعَ، لَا نَعْبُدُهُ بِالْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا<sup>٤</sup> وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ<sup>٥</sup>

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الجاثية: ١٨-١٩﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ ﴿

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ  
وَأَجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، لَا نَعْبُدُهُ تَعَالَى بِالْأُمُورِ الْمُتَبَدِّعَةِ؛ قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَهُكُمْ  
إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

إِلَهُكُمْ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو  
لِقَاءَ رَبِّهِ؛ أَيِ ثَوَابِهِ وَجَزَاءِهِ الصَّالِحِ؛ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا، وَهُوَ مَا كَانَ مُوَافِقًا  
لِلشَّرْعِ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا، وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، صَوَابًا عَلَىٰ شَرِيعَةِ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

مَتَى مَا حَقَّقَتِ الْأُمَّةُ رُكْنِي الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ، وَأَتَتْ بِأَصْلِيهِ؛ مَكَّنَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا  
لَهَا.



## أَعْظَمُ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ: الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قَالَ الْعَلَمَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>: «هَذَا مِنْ وُعُودِهِ الصَّادِقَةِ، الَّتِي شُوهِدَ تَأْوِيلُهَا وَعُرِفَ مَخْبَرُهَا، فَإِنَّهُ وَعَدَ مَنْ قَامَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَنْ يَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ، يَكُونُونَ هُمْ الْخُلَفَاءَ فِيهَا، وَيَكُونُونَ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي تَدْبِيرِهَا.

وَأَنَّهُ يُمَكِّنُ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، الَّذِي فَاقَ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا، ارْتِضَاهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهَا، بِأَنْ يَتِمَّ كُنُوزُهَا مِنْ إِقَامَتِهِ، وَإِقَامَةِ شَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ، لِكُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ مَغْلُوبِينَ ذَلِيلِينَ.

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ»: ص ٥٧٣، بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ.

وَأَنَّهُ يُبَدِّلُهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمُ الَّذِي كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَذَى كَثِيرٍ مِنَ الْكُفَّارِ، وَكَوْنِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلِينَ جَدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَقَدْ رَمَاهُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَبَغَوْا لَهُمُ الْغَوَائِلَ.

فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمُورَ وَقَتَ نَزُولِ الْآيَةِ، وَهِيَ لَمْ تُشَاهِدِ الْإِسْتِخْلَافَ فِي الْأَرْضِ، وَالتَّمَكِينَ فِيهَا، وَالتَّمَكِينَ مِنَ إِقَامَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالْأَمْنِ التَّامِّ، بَحَيْثُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَخَافُونَ إِلَّا اللَّهَ.

فَقَامَ صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، مِنَ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِمَا يَفُوقُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَمَكَّنَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَفَتَحَتْ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَحَصَلَ الْأَمْنُ التَّامُّ وَالتَّمَكِينُ التَّامُّ.

حَتَّى وَقَفَ وَاقِفُهُمْ مِنْ مُجَاهِدِيهِمْ عَلَى فَرَسِهِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُحِيْطِ يُخَاطِبُ أَمْوَاجَهُ، وَيُنَاجِي مَا هُنَالِكَ مِنْ مِيَاهِهِ، وَيَقُولُ: «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمَ أَنَّ رِءَاكَ أَيُّهَا الْبَحْرُ قَوْمًا لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ؛ لَخَضْتُكَ عَلَى مَتْنِ فَرَسِي هَذَا، وَلَا قَاتِلَنَّهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَتَّى يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

«هَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَجِيْبَةِ الْبَاهِرَةِ، وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ مَهْمَا قَامُوا بِالْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ»<sup>(١)</sup>.

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ»: ص ٥٧٣.

إِذَنْ؛ مَنْ الَّذِي يُنْصَرُّ!!؟

صَاحِبُ الْإِيْمَانِ، صَاحِبُ الْعَقِيْدَةِ الصَّحِيْحَةِ، وَصَاحِبُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

مَنْ أَقَامَ الشَّرْعَ عَلَى نَفْسِهِ كَأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، رُبُّوا عَلَى التَّوْحِيدِ،  
اخْتَرَقَتْ بَدَايَاتُهُمْ، فَأَنَارَتْ نَهَايَاتُهُمْ، وَكَانُوا بَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنَّهَايَةِ مُسْتَقِيمِينَ،  
مُوحَّدِينَ، مُتَسَنِّينَ، وَكَذَا كَانَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

وَالْوَعْدُ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِلَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

«لَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، مَهْمًا قَامُوا بِالْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَلَا  
بُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ، وَإِنَّمَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقُونَ، وَيُدَالُ عَلَيْهِمْ  
فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ؛ بِسَبَبِ إِخْلَالِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ»<sup>(١)</sup>.

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ - التَّمَكِينُ وَالسَّلْطَنَةُ التَّامَّةُ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ -  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَفَسَقُوا؛ فَلَمْ يُصْلِحُوا  
الصَّالِحَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَهْلِيَّةٌ لِلْخَيْرِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتْرُكُ الْإِيْمَانَ فِي حَالِ عِزِّهِ  
وَقَهْرِهِ، وَعَدَمِ وُجُودِ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ نِيَّتِهِ وَخُبْثِ طَوِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ  
لَا دَاعِيَ لَهُ لِتَرْكِ الدِّينِ إِلَّا ذَلِكَ، إِلَّا خُبْثُ النِّيَّةِ وَسُوءُ الطَّوِيَّةِ!!<sup>(\*)</sup>.



(١) المصدر السابق.

(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٣ هـ / ٢٢-٦ -

## التَّوْحِيدُ سَبِيلُ بِنَاءِ الْأُمَّةِ وَعِزَّتِهَا

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ الْمَصْلَحَةَ الْعُلْيَا لِلْأُمَّةِ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِمَا يَتَحَقَّقُ بِهِ نَفْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَنَفْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فَلَا يَتَحَقَّقُ الصَّلَاحُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَنْتَفِي الْفَسَادُ مِنْهَا إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ فِيهَا، الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْخَلْقَ، فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَى مِنَ الْمَصَالِحِ الْعُلْيَا هُوَ: تَحْقِيقُ دِينِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فِيهِ تَتَحَقَّقُ الْمَصْلَحَةُ، وَبِهِ تَنْتَفِي الْمَفْسَدَةُ. (\*)

وَالْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ الْيَوْمَ -إِلَّا قَلِيلًا- فِيهِ الْمَشَاهِدُ الشَّرِكِيَّةُ الَّتِي شِيدَتْ عَلَى الْقُبُورِ، وَعِنْدَهَا شِرْكٌ يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، يُعْبَدُ الْأَمْوَاتُ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَى الْقُبُورِ!!  
وَمِنْ غَلَبَةِ الْجَهْلِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ؛ لِأَنَّهُ -بِزَعْمِهِمْ-  
يَنْتَقِصُ الْأَوْلِيَاءَ!!

(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ عِيدِ الْفِطْرِ: ١٤٣٨هـ «فِئْرَانُ السُّدُودِ» - الْأَحَدُ ١ مِنْ سُؤَالِ

سُبُلُ بِنَاءِ الْأُمَمِ وَدَوْرُ الْفَرْدِ فِيهَا

وَالدُّعَاةُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ - فِي الْجُمْلَةِ - لَا يَهْتَمُونَ بِأَمْرِ التَّوْحِيدِ، وَإِنَّمَا يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْأَخْلَاقِ الطَّيِّبَةِ، وَإِلَى تَرْكِ الزُّنَا، وَتَرْكِ شُرْبِ الْخَمْرِ، وَهِيَ كِبَائِرُ مُحَرَّمَاتٍ بِلَا شَكٍّ.

وَلَكِنْ لَوْ تَرَكَ النَّاسُ الزُّنَا، وَشَرَبَ الْخُمُورَ، وَحَسَّنُوا أَخْلَاقَهُمْ، وَتَرَكَوا الرِّبَا، وَلَمْ يَتْرُكُوا عِبَادَةَ الْقُبُورِ؛ فَاسَّاسُهُمْ غَيْرٌ صَحِيحٍ، وَدِينُهُمْ غَيْرٌ صَحِيحٍ. وَلَوْ تَرَكَوا الْكِبَائِرَ - مَا دَامَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا الشَّرْكَ -، وَحَتَّى مَنْ لَمْ يُشْرِكْ مَا دَامَ أَنَّهُ لَا يُنْكِرُ الشَّرْكَ، وَلَا يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلَا يَتَّبِعُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

هَذَا تَنْزِيهٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ الشَّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. فَالْمُسْلِمِ الْمُوَحِّدِ لَا يَصِحُّ تَوْحِيدُهُ حَتَّى يَتَّبِعَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا يَسْعَهُ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى الشَّرْكِ يَعُجُّ فِي بَلَدِهِ، وَالْأَضْرَحَةَ تُشِيدُ فِيهَا، وَيُطَافُ بِالْقُبُورِ، وَيُسْأَلُ الْمُقْبُورُونَ حَتَّى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ.

فَلَا يَسْعُ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ الْخَطِيرِ الَّذِي يَفْتِكُ بِجَسَدِ الْأُمَّةِ، وَيَقُولُ: أَدْعُو النَّاسَ إِلَى حُسْنِ السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ، وَتَرَكَ الْخُمُورَ، وَتَرَكَ الزُّنَا!!

مَاذَا تَنْفَعُ هَذِهِ إِذَا فَقَدَ ذَلِكَ الْأَسَاسُ!!؟

إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتَهُ؛ وَضَعَ أَسَاسَهُ، وَإِذَا لَمْ يَهْتَمَّ بِأَسَاسِ بَيْتِهِ، وَلَا بِقَوَاعِدِ بِنَائِهِ؛ فَهَمَّا شَيْدٌ وَجَمَلٌ، وَحَسَنٌ وَنَمَّقٌ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِلسَّقُوطِ،

وَيَكُونُ خَطْرًا عَلَيْهِ، وَعَلَى مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ، وَعَلَى مَنْ نَزَلَ ذَلِكَ الْمَبْنَى الَّذِي لَمْ يُشَيْدْ عَلَى أُسَاسٍ.

كَذَلِكَ الدِّينُ؛ إِذَا لَمْ يَقُمْ عَلَى عَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ، وَأُسَاسٍ سَلِيمٍ، وَتَوْحِيدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الشَّرْكِ، وَإِبْعَادِ لِلْمُشْرِكِينَ عَنِ مَوْطِنِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ الْبُنْيَانَ يَكُونُ وَاهِيًا سَرْعَانَ مَا يَتَهَاوَى.

\* رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَعْظَمُ الدُّعَاةِ إِلَى التَّوْحِيدِ:

لَقَدْ مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ الْبَعْثَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَكَمَا فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ»<sup>(١)</sup> مِنْ حَدِيثِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدُورُ عَلَى النَّاسِ يَقُولُ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا». يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ..

السُّورَةُ الْمَكِّيَّةُ فِي جُمْلَتِهَا تُعَالِجُ قَضِيَّةَ التَّوْحِيدِ، وَلَمَّا تَأَسَّسَ التَّوْحِيدُ، وَقَامَتِ الْعَقِيدَةُ؛ نَزَلَتْ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ، نَزَلَ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ، وَالْأَمْرُ بِالزَّكَاةِ، وَالْأَمْرُ بِالصِّيَامِ، وَهَذَا إِنَّمَا نَزَلَ عَلَى النَّحْوِ النَّهَائِيِّ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ.

(١) «مسند الإمام أحمد»: ٤ / ٦٣ و ٣٤١، بإسناد صحيح، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدَّيْلَمِيِّ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا أَسْلَمَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا فِي سُوقِ عُكَاظٍ [وَفِي رِوَايَةٍ: فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ]، يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»، وَرَجُلٌ يَتَّبِعُهُ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا يُرِيدُ أَنْ يَصُدِّكُمْ عَنِ آلِهَتِكُمْ، فَاذًا النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو جَهْلٍ [وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَبُو لَهَبٍ].  
والحديث جود إسناده الألباني في هامش «صحيح السنة النبوية»: ص ١٤٢ و ١٤٣، وله شاهد من رواية طَارِقِ الْمُحَارِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَرِضَتِ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي مَكَّةَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ قَبْلَ  
الْهِجْرَةِ بِزَمَنِ يَسِيرٍ، فَرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي مَكَّةَ بَعْدَمَا تَأَسَّسَ التَّوْحِيدُ،  
وَبَعْدَمَا بُنِيَتِ الْعَقِيدَةُ، ثُمَّ نَزَلَتْ فَرِيضَةُ الزَّكَاةِ، وَنَزَلَ الصِّيَامُ، وَنَزَلَ الْحَجُّ،  
وَنَزَلَتْ بِقِيَّةُ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

وَيُوضَّحُ ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ؛ خَطَّ لَهُ  
مِنْهَاجَ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا  
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ:  
عِبَادَةُ اللَّهِ ﷻ».

فَبَدَأَ بِالتَّوْحِيدِ، وَلَمْ يَبْدَأْ فِي الدَّعْوَةِ بِشَيْءٍ قَبْلَهُ.

ثُمَّ قَالَ: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ - أَيُّ: شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَوُجِدَ  
الْأَسَاسُ وَهُوَ التَّوْحِيدُ - فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي  
كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً  
تُؤَخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ»<sup>(١)</sup>. وَالْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحِ» مِنْ رِوَايَةِ  
ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: ٣/ ٣٢٢، رقم (١٤٥٨) و ١٣/ ٣٤٧، رقم (٧٣٧٢)،

ومسلم في «الصحيح»: ١/ ٥١، رقم (١٩)، من حديث: ابن عباس، أن رسول الله ﷺ  
لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ

فَأَوَّلُ شَيْءٍ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا بِرَضِيْعِهِ بِهِ عِنْدَ أَخْذِهِ بِالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: هُوَ التَّوْحِيدُ.

وَلَيْسَ ذَلِكَ خَاصًّا بِمُعَاذٍ رَضِيْعِهِ، بَلْ هَذَا عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ؛ أَنْ يَبْدَأَ بِهَذَا الْأَصْلِ.

فَمِنْ غَيْرِ إِقْرَارٍ بِالتَّوْحِيدِ كَيْفَ يُؤْمَرُ النَّاسُ بِالصَّلَاةِ؟!!!

لَا فَائِدَةَ مِنَ الصَّلَاةِ بِدُونِ تَوْحِيدٍ، لَا فَائِدَةَ مِنَ الصَّلَاةِ مَعَ الشَّرْكِ، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ الزَّكَاةِ مَعَ الشَّرْكِ، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ الصِّيَامِ بِدُونِ تَوْحِيدٍ، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ الْحَجِّ مَعَ الإِشْرَاكِ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

فَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ، وَلَا يَصِحُّ إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ مَهْمَا عَظَمَ ذَلِكَ الْعَمَلُ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ لَا تَصِحُّ إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ. وَقَدْ قَالَ جَلَّ وَعَلَا لَمَّا ذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ ﷻ [وَفِي رِوَايَةٍ: فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ تَعَالَى]، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُوْخَذُ مِنْ أَعْيُنِيهِمْ فترد على فقرائهم، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ».

عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ  
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ ﴿[الأنعام: ٨٣ - ٨٤].

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ  
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وَمَا دَعَا إِلَيْهِ النَّبِيُّ وَالرَّسُولُ مُعَاذًا بِإِذْنِ اللَّهِ عِنْدَ الْبَدْءِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ هُوَ مَا كَانَ  
عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، فَكُلُّهُمْ بَدَءُوا بِالِدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ.

قَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقَوْمُوا أَعْبُدُوا  
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾  
[الأعراف: ٦٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقَوْمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا  
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

بَلْ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَجْمَلَ الرُّسُلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا  
أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ  
الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا  
فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، هَذَا هُوَ الْأَسَاسُ، هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ، فَكَيْفَ يَزْهَدُ الدُّعَاةُ

إِلَى اللَّهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ!!؟

وَكَيْفَ يَغْفُلُونَ عَنْهُ!!؟

وَكَيْفَ لَا يَبْدُوْنَ بِهِ!!؟

وَكَيْفَ يُقَالُ زُورًا، وَمِينًا، وَكَذِبًا: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ تَفَرَّقَ الْمُسْلِمِينَ،

وَتَشَّتْ شَمْلَهُمْ، وَتَبَدَّدَ جَمْعَهُمْ!!؟

هَذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَزُورٌ، بَلْ إِنَّهُ لَا يَجْمَعُ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُوحِّدُ صُفُوفَهُمْ،

وَلَا يُعْلِي شَأْنَهُمْ إِلَّا اجْتِمَاعَهُمْ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ.

وَلَا يَسْتَتِبُ الْأَمْنُ، وَلَا يَحُلُّ الْإِسْتِقْرَارُ إِلَّا إِذَا اسْتَقَرَّ التَّوْحِيدُ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

فَلَا يَسْتَتِبُ الْأَمْنُ، وَلَا يَحْصُلُ الْإِسْتِقْرَارُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ وَنَفْيِ الشُّرْكِ.

وَهَذِهِ الْمَطَالِبُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ مِنَ الْإِسْتِخْلَافِ فِي

الْأَرْضِ، وَالتَّمْكِينِ لِلدِّينِ، وَالْإِتْيَانِ بِالْأَمْنِ، كُلُّهَا لَا تَأْتِي إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا

شَرِيكَ لَهُ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

فَلَا تَجْتَمِعُ كَلِمَةُ الْأُمَّةِ، وَلَا يَصِحُّ بِنَاؤُهَا إِلَّا عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِلَّا عَلَى

عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ الصَّحِيحَةِ.

أَمَّا إِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ، وَتَفَشَّتِ الْبِدْعُ وَالْخُرَافَاتُ، وَقِيلَ: اتْرُكُوا النَّاسَ أَحْرَارًا فِي عَقَائِدِهِمْ، لَا تَنْفَرُوهُمْ، وَلَا تُبَدِّدُوا جَمْعَهُمْ!! إِذَا وَقَعَ ذَلِكَ؛ حَصَلَ الْإِخْتِلَافُ، وَحَصَلَ التَّفَرُّقُ، وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَهَى قُوَّتَهُمْ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي الدُّنْيَا الْيَوْمَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا أَرْسَلَ نَبِيَّهُ ﷺ؛ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُومُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَامَ بِهِ، وَنَظَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ؛ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ؛ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الدِّيَارَاتِ وَالصَّوَامِعِ وَالْبَيْعِ، كَانُوا قَدْ قَرَأُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ، وَيَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِشِيَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيَنْتَظِرُونَ مَقْدَمَهُ، وَأَطْبَقَتِ الْأَرْضُ عَلَى الشِّرْكِ وَالْكَفْرِ.

فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَدَعَا إِلَى تَوْحِيدِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، وَانصَاعَتِ قُلُوبُ إِلَى دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، وَأُسِّسَتِ الْمِلَّةُ عَلَيْهِ، وَانْتَشَرَ التَّوْحِيدُ فِي الْأَرْضِ؛ عَمَّ فِيهَا الْخَيْرُ، وَقَلَّ فِيهَا الشَّرُّ.

وَكَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ - كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»<sup>(١)</sup> مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ؛ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ».

كُلَّمَا بَعَدَ الْعَهْدُ عَنْ عَصْرِ النُّبُوَّةِ؛ كَثُرَ الشَّرُّ، وَقَلَّ الْخَيْرُ.



(١) «صحيح مسلم»: ١/١٣٠، رقم (١٤٥).

## حَالُ أُمَّةِ الْعَرَبِ قَبْلَ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ وَبَعْدَهَا

إِنَّ الْعَرَبَ قَبْلَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ كَانُوا مُتَفَرِّقِينَ مُتَشَتِّتِينَ، عِنْدَهُمْ ثَارَاتٌ وَغَارَاتٌ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ، وَدَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ؛ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، تَوَحَّدُوا، وَصَارُوا قُوَّةً هَائِلَةً فِي الْأَرْضِ، سَادَتِ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بَيْنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ حَالَهُمْ قَبْلَ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا صَارَتْ إِلَيْهِ أُمُورُهُمْ بَعْدَ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَاسْتَجَابَتِهِمْ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قَبْلَ الْبَعْثَةِ كَانُوا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَكَانُوا مَطْمَعًا لِشُعُوبِ الْأَرْضِ، كَانَتْ تُسَيِّطِرُ عَلَى الْعَرَبِ فَارِسُ وَالرُّومُ، وَكُلُّ دَوْلَةٍ مِنْ دُولِ الْكُفْرِ كَانَ لَهَا فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ نَصِيبٌ.

فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ؛ انْعَكَسَ الْأَمْرُ، فَصَارَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِالْإِسْلَامِ تُسَيِّطِرُ عَلَى الْعَالَمِ، وَامْتَدَّتِ الْفَتْوحُ، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوْلَاهَا، وَقَدْ أَصْلَحَ أَوْلَاهَا الْإِيمَانُ وَالْيَقِينُ»<sup>(١)</sup>.

هَذِهِ الْأُمَّةُ إِذَا أَرَادَتْ الْإِجْتِمَاعَ، وَأَرَادَتْ الْقُوَّةَ، وَأَرَادَتْ الْإِتِّتْلَافَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوْلَاهَا، وَالَّذِي أَصْلَحَ أَوْلَاهَا هُوَ التَّوْحِيدُ.

لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا التَّوْحِيدُ، وَالْإِجْتِمَاعُ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، الْإِجْتِمَاعُ عَلَى كَلِمَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

فَالَّذِي يَجْمَعُ الْأُمَّةَ: الْعَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

وَالْهُدَى: الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَدِينُ الْحَقِّ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَجْتَمَعَ هَذِهِ الْأُمَّةُ إِلَّا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَسَاسُ ذَلِكَ: التَّوْحِيدُ، وَإِفْرَادُ اللَّهِ ﷻ بِالْعِبَادَةِ.

وَالْأَنْبِيَاءُ هُمُ الْمُصْلِحُونَ حَقًّا.. هُمُ الْمُصْلِحُونَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَقَدْ بَعَثَهُمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَقْوَامِهِمْ، وَقَدْ تَفَشَّتْ فِيهِمُ الْأَمْرَاضُ فَوْقَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالطُّغْيَانِ.

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية: ١ / ٢٤١ و ٣٥٣، و ٣٥٨ / ٢٤، وأخرجه الجوهري

المالكي في «مسند الموطأ»: رقم (٧٨٣)، وابن عبد البر في «التمهيد»: ١٠ / ٢٣، بإسناد صحيح، عَنْ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ يَتَعَدُّ إِلَيْنَا، ثُمَّ لَا يَقُومُ أَبَدًا حَتَّى يَقُولَ لَنَا: «إِنَّهُ لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوْلَاهَا»، قُلْتُ لَهُ: يُرِيدُ مَاذَا؟ قَالَ: «يُرِيدُ التَّقْوَى».

كَانَتْ عِنْدَهُمْ - أَيْضًا - أَمْرَاضٌ تَتَعَلَّقُ بِسِيَاسَاتِهِمْ، وَتَتَعَلَّقُ بِاِقْتِصَادِهِمْ،  
وَتَتَعَلَّقُ بِمُجْتَمَعَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَمَعَ ذَلِكَ؛ لَمْ يَبْدَأْ نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا رَسُولٌ مِنَ الرُّسُلِ - وَهُمْ  
الْمُضْلِحُونَ حَقًّا، وَهُمْ الْمُضْلِحُونَ عَلَى الْحَقِيقَةِ -؛ لَمْ يَبْدُؤُوا دَعْوَةَ أَقْوَامِهِمْ  
بِشَيْءٍ قَبْلَ تَوْحِيدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾  
[الأعراف: ٥٩].

وَلَنَا فِيهِمْ الْأُسُوءَةُ الْحَسَنَةُ، وَالْقُدُوءَةُ الصَّالِحَةُ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ الرَّسُولُ ﷺ  
الَّذِي أَمَرَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنْ نَقْتَدِيَ بِهِ.



## الدَّعْوَةُ إِلَى إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ

عِبَادَ اللَّهِ! إِذَا أَرَدْنَا الْإِصْلَاحَ حَقًّا؛ فَعَلَيْنَا أَنْ نَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى إِفْرَادِ اللَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ؛ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ، لَيْسَ مَا يَقُولُهُ بَعْضُ الْجَهَّالِ أَوْ  
الضَّلَالِ؛ مِنْ أَنَّهُ هُوَ الْإِفْرَادُ بِوُجُودِ اللَّهِ، أَوْ الْإِفْرَادُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ  
الْمُحْيِي الْمُمِيتُ!!

هَذَا تَوْحِيدٌ؛ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ التَّوْحِيدَ الْمَطْلُوبَ؛ لِأَنَّ هَذَا قَدْ أَقْرَبَهُ الْمُشْرِكُونَ؛  
وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءَلَّهُ مَعَ  
اللَّهِ قُلْ هَانُوا بِرُهْنِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥].

فَهُمْ مُفْرُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ الَّذِي يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ  
فِيهِنَّ؛ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُشْرِكُونَ.

لَمَّا لَمْ يُفْرِدُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ؛ اسْتِيحَتْ  
أَمْوَالُهُمْ، وَدِمَاؤُهُمْ، وَنَسَاؤُهُمْ، وَذَرَارِيُّهُمْ، وَدَوْرُهُمْ، وَأَرْضُهُمْ.

وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ مَا أَقْرُوا وَلَا اعْتَرَفُوا بِأَنَّ الْعِبَادَةَ  
حَقُّ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَلَمْ يُفْرِدُوا اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا بِالْعِبَادَةِ، وَلَمْ يَتْرَكُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَلَمْ  
يَتَخَلَّوْا عَنِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَعِبَادَةِ الْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ.

وَلَكِنْ لَوْ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لَصَارُوا حِينَئِذٍ مُسْلِمِينَ.

فَاقْتَصَارُ التَّوْحِيدِ عَلَى تَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ لَا يَكْفِي؛ لِأَنَّ هَذَا أَقْرَبُ بِهِ أَبُو جَهْلٍ  
رَأْسُ الْكُفْرِ، وَأَقْرَبُ بِهِ أَبُو لَهَبٍ، وَأَقْرَبُ بِهِ كُلُّ الْكُفْرَةِ، أَقْرَبُوا بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ  
هُوَ الْخَالِقُ، وَأَنَّهُ الرَّزَّاقُ، الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؛ وَلَكِنْ عَبْدُوا مَعَ اللَّهِ  
غَيْرَهُ؛ مِنْ أَصْنَامِهِمْ وَأَوْثَانِهِمْ؛ كَاللَّاتِ، وَالْعَزَى، وَمَنَاةَ.

فَصَارُوا مُتَرَبِّينَ مُوَحِّدِينَ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَمُشْرِكِينَ فِي تَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ،  
وَلَا يَنْفَعُ تَوْحِيدَ الرَّبُّوبِيَّةِ بِدُونِ تَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ تَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ  
الَّذِي هُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، وَتَرْكُ عِبَادَةِ مَا وَمَنْ سِوَاهُ، كَمَا قَالَ  
جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

[النحل: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٦].

مَا قَالَ: «أَقْرَبُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ!!»؛ لِأَنَّ هَذَا  
مُسْتَقَرٌّ فِي الْفِطْرِ، يُفْرُونَ بِهِ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يَكْفِي هَذَا الْإِقْرَارُ وَحْدَهُ.

فَالَّذِينَ يَقُولُونَ: التَّوْحِيدُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ، الرَّزَّاقُ، الْمُحْيِي  
 الْمُمِيتُ، الْمُدَبِّرُ؛ يُقَالُ لَهُمْ: إِنَّ وَقَفْتُمْ عِنْدَ حُدُودِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا تَوْحِيدُ أَبِي جَهْلٍ،  
 وَهَذَا تَوْحِيدُ أَبِي لَهَبٍ؛ لِإِنَّهُمْ مَا ادَّعَوْا قَطُّ أَنْ هَبَلَ أَوْ مَنَاءَ أَوْ الْعُزَّى؛ لَمْ يُقَرُّوا  
 أَبَدًا وَلَمْ يُصَرِّحُوا -بَلْ وَلَمْ يَعْتَقِدُوا- أَنَّ شَيْئًا مِنْ أَصْنَامِهِمْ يَخْلُقُ شَيْئًا، أَوْ يَرْزُقُ  
 أَحَدًا، أَوْ يُدَبِّرُ أَمْرًا.

وَإِنَّمَا شَرِكُهُمُ الَّذِي صَارُوا بِهِ مُخَلَّدِينَ فِي النَّارِ، وَاسْتَبِيحَتْ بِهِ دِمَاؤُهُمْ،  
 وَأَمْوَالُهُمْ، وَذُرِّيَّاتُهُمْ، وَدُورُهُمْ، وَأَرْضُهُمْ، وَخَلَدُوا بِهِ فِي النَّارِ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ  
 إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ، الرَّزَّاقُ، الْمُحْيِي الْمُمِيتُ؛ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَمَا  
 ادَّعَوْا قَطُّ أَنْ شَيْئًا مِنْ أَصْنَامِهِمْ يَخْلُقُ، أَوْ يَرْزُقُ، أَوْ يُدَبِّرُ.

شَرِكُهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

شَرِكُهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وَهُوَ بَعِينُهُ مَا تَقَعَّ فِيهِ طَوَائِفُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ!!

طَوَائِفُ كَبِيرَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الصَّالِحِينَ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ، وَمِمَّنْ  
 يَعْتَقِدُونَ فِيهِمْ الصَّلَاحَ مِنَ الْمَقْبُورِينَ!! يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ؛ فَهُمْ  
 قَوْمٌ صَالِحُونَ، وَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهٌ، فَنَجْعَلُهُمْ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ، وَنَتَّخِذُهُمْ وَسَائِطَ  
 تُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ!!

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَعَدَمَ الشَّرِكِ بِهِ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ  
 وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

فَالَّذِينَ يُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاسِ الْيَوْمَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْأُمَّةَ لَا تَحْتَاجُ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ!! هُوَ لَا يَخُونُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْإِسْلَامَ الْعَظِيمَ!!

وَهُوَ لَا مِنْ جُنْدِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُنَجِّي الْمُسْلِمِينَ إِلَّا تَوْحِيدُهُمْ لِرَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلَا، وَإِخْلَاصُهُمْ فِي الْعِبَادَةِ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

الْمُرْسَلُونَ كُلُّهُمْ دَعَوْا إِلَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَخَاتَمُهُمْ وَإِمَامُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ صَدَقَهُمْ، وَدَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ.

وَلَوْ كَانَ يَكْفِي أَنْ يَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ الْخَالِقُ، الْمَالِكُ لِلْمُلْكِ، الْمُدَبِّرُ لِلْأَمْرِ؛ لَمَا قَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

لَوْ كَانَ مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»: الْإِفْرَارُ بِالْخَالِقِ الرَّزَّاقِ؛ لَمَا قَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا سِوَى هَذَا، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِفْرَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ.

قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

فَالْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: هِيَ إِفْرَادُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَتَرْكُ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَالْبِرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

هَذِهِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا يَنْجُو أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَتْبَاعِهَا.

هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَبَسَبِهِ كَانَتِ الْمِحْنَةُ، وَوَقَعَتِ الْمَلْحَمَةُ بَيْنَ جُنْدِ الرَّحْمَنِ وَجُنْدِ الشَّيْطَانِ، هُوَ أَمْرُ الْعَقِيدَةِ، أَمْرُ التَّوْحِيدِ.

فَالْكَفَّارُ - مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْوَثْنِيِّينَ - يُدْعَوْنَ إِلَى التَّوْحِيدِ.

فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَسَاسُ.. الْعَقِيدَةُ رَأْسُ الدِّينِ. (\*)



(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَيَّ: «الْقَوْلُ الْمُفِيدُ عَلَيَّ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - السَّبْتُ ١٥ مِنْ

الْمُحَرَّمِ ١٤٣٣هـ/ ١٠-١٢-٢٠١١م.

## تَمَكِينُ اللَّهِ لِلْأَنْبِيَاءِ بِتَحْقِيقِهِمُ التَّوْحِيدَ

تَأَمَّلْ كَيْفَ مَكَّنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلنَّبِيِّينَ مِمَّنْ أَعْلَى اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ شَأْنَهُمْ وَرَفَعَ ذِكْرَهُمْ دُنْيَا وَآخِرَةً ﴿٥٤﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْوِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَنْبَأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٦﴾

[يوسف: ٥٤ - ٥٧].

هَذَا التَّمَكِينُ الَّذِي مَكَّنَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِيُوسُفَ كَانَ لِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ؛ حَيْثُ قَالَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- عَلَى لِسَانِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السَّجِنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

سُلْطَنٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [يوسف: ٣٧ - ٤٠].

دَعْوَةٌ لِلتَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ، مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُمَكِّنُ اللَّهُ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ فِي الْأَرْضِ. (\*).



(\*): مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٣ هـ / ٢٢-٦ -

## مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ: الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَشْرَفُ وَأَكْرَمُ مَقَامَاتِ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ.

هِيَ أَكْرَمُ مَقَامٍ يَقُومُهُ عَبْدٌ لِرَبِّهِ أَنْ يَكُونَ دَاعِيًا إِلَيْهِ، دَالًّا عَلَيْهِ، مُرْشِدًا إِلَى صِرَاطِهِ، مُتَّبِعًا لِسَبِيلِ نَبِيِّهِ، مُقِيمًا عَلَى ذَلِكَ، مُخْلِصًا فِيهِ، آتِيًا بِهِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يُرِضِيهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

هَذَا اسْتِفْهَامُ الْعَرَضِ مِنْهُ النَّفْيِ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾: أَيُّ: لَا أَحَدَ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾: مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ، لَا إِلَى نَفْسِهِ، وَلَا إِلَى مَنْهَجِهِ، وَلَا إِلَى طَرِيقَتِهِ، وَلَكِنْ إِلَى اللَّهِ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: فَالْتَزَمَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَعَمِلَ بِهِ.

﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: فَاسْلَمَ الزَّمَامَ لِلَّهِ وَحَدَهُ بِالشَّرْعِ الْأَغْرِّ، بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا يَبْتَدِعُ، وَلَا يَتَزَيَّدُ، وَلَا يَجِدُ حَظَّ نَفْسِهِ، بَلْ يَجْعَلُ ذَلِكَ تَحْتَ مَوَاطِئِ أَقْدَامِهِ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مُخْلِصًا، إِلَى اللَّهِ خَالِصًا، اللَّهُ وَحْدَهُ، فَلَا أَحَدَ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلًا، وَلَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ فِعْلًا، وَلَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْهُ دَعْوَةً. (\*)

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أَنْتُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ أُمَّةٍ أُظْهِرَتْ لِلنَّاسِ، وَحُمِلَتْ وَظِيفَةَ الْخُرُوجِ بِتَبْلِيغِ النَّاسِ دِينَ اللَّهِ لَهُمْ.

وَهَذِهِ الْخَيْرِيَّةُ قَدْ عَلِمَهَا اللَّهُ فِيكُمْ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَكُمْ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ يَشْمَلُ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ.

وَسَبَبُ بَقَاءِ تِلْكَ الْخَيْرِيَّةِ فِيكُمْ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ أَنْكُمْ سَتَظْلُونَ تَأْمُرُونَ دَاخِلَ مُجْتَمَعِكُمُ الْمُسْلِمِ بِمَا عُرِفَ فِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ حُسْنُهُ، وَتَنْهَوْنَ عَنْ كُلِّ مَا عُرِفَ فِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ قُبْحُهُ، فَتَحْمُونَ مُجْتَمَعَكُمْ بِهَذَا - أَيْ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِنْحِرَافِ الْخَطِيرِ، وَالْإِنْهِيَارِ إِلَى الْحَضِيضِ الَّذِي بَلَغَتْهُ الْأُمَّمُ قَبْلَكُمْ.

(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ سَفِينَةُ النَّجَاةِ» - الْجُمُعَةُ ٨ مِنْ صَفَرِ ١٤٢٩ هـ/

وَأَنَّكُمْ سَتَظَلُّونَ تُصَدِّقُونَ بِاللَّهِ، وَتُخْلِصُونَ لَهُ التَّوْحِيدَ وَالْعِبَادَةَ مَهْمَا  
 اشْتَدَّتْ عَلَيْكُمُ النَّكَبَاتُ مِنَ الْأُمَّمِ الْأُخْرَى؛ بُغْيَةَ إِخْرَاجِكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ  
 إِلَى الْكُفْرِ. (\*)



(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةٍ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [آل عمران:

## الْعِلْمُ وَالْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَمِ

إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ عَلَى مِنْهَاجِ النَّبِيِّ خَيْرٌ مَا بُدِلَتْ فِيهِ الْأَعْمَارُ، وَالْحَقُّ فِيهِ  
الَلَّيْلُ بِالنَّهَارِ.

الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ  
الْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ  
الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ  
لِلَّهِ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ  
أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْجُهَّالِ فِي الظُّلَمِ  
أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ (١)

(١) الأبيات للعلامة حافظ بن أحمد الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧) من «المنظومة الميمية في

الوصايا والآداب العلمية» طبع ضمن مجموع رسائل ومنظومات الحكمي: ص ٣٧٩،

من البيت (١٦) إلى (١٩)، قال:

الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ  
الْعِلْمُ غَايَةُ الْقُصُوفِ وَرُتْبَتُهُ أَلْ  
الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ  
الْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ  
أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ  
عَلِيَاءُ فَاسْعُوا إِلَيْهِ يَا أَوْلِي الْهِمَمِ  
لِلَّهِ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ  
أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْجُهَّالِ فِي الظُّلَمِ

وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ - كَمَا فِي حَدِيثِ «الصَّحِيحِينَ» (١) مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ الْجَهْلَ وَالْجُهَالَ سَبَبُ الضَّلَالِ وَالْإِضْلالِ، قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتِزَاعًا يَنْتِزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

وَمَفْهُومُ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ سَبَبُ الْهُدَايَةِ وَالْإِهْتِدَاءِ؛ لِذَا كَانَ مِنَ النِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الدَّفَاعُ عَنِ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّ الْكُتُبَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُدْفَعَ عَنِ الشَّرِيعَةِ، إِنَّمَا يُدْفَعُ عَنِ الشَّرِيعَةِ حَامِلُهَا. (\*).

وَلَمَّا كَانَ كُلٌّ مِنَ الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالْحُجَّةِ يُسَمَّى سَبِيلَ اللَّهِ؛ فَسَرَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَوْلَهُ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، بِالْأَمْرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، فَإِنَّهُمْ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، هُوَ لِأَنَّ بَأْيْدِيهِمْ - يَعْنِي: الْأَمْرَاءَ - وَهُوَ لِأَنَّ بِالْأَمْرَاءِ - يَعْنِي الْعُلَمَاءَ -.

(١) «صحيح البخاري»: ١ / ١٩٤، رقم (١٠٠)، و«صحيح مسلم»: ٤ / ٢٠٥٨ و ٢٠٥٩، رقم (٢٦٧٣).

وَفِي رِوَايَةِ لِلْبُخَارِيِّ: ١٣ / ٢٨٢، رقم (٧٣٠٧): «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمْوهُ أَنْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتِزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَالًا، يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيُضَلُّونَ».

(\*): مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «نَصِيحَةُ الْعَلَامَةِ رَسُولَانَ لِطُلَّابِ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النَّبَوَّةِ» - ١٦ مِنْ سُؤَالَ

ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْجَامِعِ»<sup>(١)</sup> عَنْ بَعْضِهِمْ فِي قَدْرِ الْعُلَمَاءِ وَقِيَمَتِهِمْ:  
 وَمَدَادُ مَا تَجْرِي بِهِ أَقْلَامُهُمْ      أَزْكَى وَأَفْضَلُ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ  
 يَاطَلِبِي عِلْمِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ      مَا أَنْتُمْ وَسُؤَاكُمُ بِسِوَاءِ<sup>(\*)</sup>

\* حَثَّ الْإِسْلَامُ عَلَى التَّرَقِّي فِي الْعُلُومِ الْمَادِّيَّةِ، وَالصَّنَاعَاتِ النَّافِعَةِ:

إِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ يَأْمُرُنَا بِأَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنْ نَجْتَهِدَ فِي النَّظَرِ  
 فِي الْأَفَاقِ وَفِي الْأَنْفُسِ وَفِيمَا بَثَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي تَضَاعِيفِ هَذَا الْكُونِ مِنَ  
 الْآيَاتِ؛ لِكَيْ نَضَعَ أَيْدِينَا عَلَى الْأَسْرَارِ الَّتِي تَرْتَقِي بِهَا الْحَيَاةُ.

فَجَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ مَا يُؤَدِّي إِلَى تَرْقِيَةِ الْإِنْسَانِ فِيَمَا هُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ،  
 جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ عِبَادَةً لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَهَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ هُوَ دِينُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِي أَكْمَلَهُ وَرَضِيَهُ لِخَلْقِهِ فِي  
 أَرْضِهِ، وَهُوَ يَحْمِلُ فِي آيَاتِهِ وَتَضَاعِيفِهِ الْبَرَاهِينَ الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى  
 بِهِ مِنْ لَدُنْ رَبِّهِ.

(١) «جامع بيان العلم وفضله»: ١٥١/١، رقم (١٥٥)، ونسب هذه الأبيات لِأَبِي بَكْرٍ بِنِ  
 دُرَيْدٍ، ونسبه أبو طاهر السلفي في «معجم السفر»: ص ٢١٢ و ٢١٣، رقم (٦٨٤) وغيره  
 لِابْنِ الْأَثَرِيِّ.

(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «حَيْثُ وَقَعَ نَفْعٌ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ الْمَحَرَّمِ ١٤٣٤ هـ / ١٦-١١-

دِينُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ يَحُضُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّرَقِّي فِي الْعُلُومِ، وَفِي النَّظَرِ فِي آفَاقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَلَى النَّظَرِ فِي الْأَنْفُسِ، بَلْ وَعَلَى النَّظَرِ فِيمَا تَحْتَ الثَّرَى، وَهُوَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَنْ وَصَلَ مِمَّنْ نَظَرُوا فِي أَمْثَالِ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي حَدَدَهُ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ مَا تَحْتَ الثَّرَى، فَاسْتَخْرَجُوا الْمَعَادِنَ، وَاسْتَخْرَجُوا تِلْكَ الْمَادَّةَ الَّتِي صَارَتْ طَاقَةً لَا يَسْتَعْنِي عَنْهَا الْعَالَمُ الْيَوْمَ.

وَكُلُّ ذَلِكَ أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ إِشَارَةً مُجْمَلَةً ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: ٦٠].

فَالْمُسْلِمُونَ لَمَّا أَخَذُوا بِتَعَالِيمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَقَدَّمُوا حَتَّى مَلَكَوا الْعَالَمَ الْقَدِيمَ كُلَّهُ.

الْمُسْلِمُونَ لَا يَتَقَدَّمُونَ فِي عُلُومِ الْمَادَّةِ إِلَّا إِذَا تَمَسَّكُوا بِالذِّينِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! طَيَّبُوا نَفْسًا بِهَذَا الدِّينِ الْخَاتَمِ الَّذِي رَضِيَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَكُمْ، وَالَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهِ. (\*).

\* الْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّمِ:

قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(\* مَا مَرَّ ذِكْرُهُ - بِاخْتِصَارٍ وَتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ - مِنْ «شَرْحِ الدَّلَائِلِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي أَنَّ الْعُلُومَ وَالْأَعْمَالَ النَّافِعَةَ الْعَصْرِيَّةَ دَاخِلَةٌ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ» - الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَى - السَّبْتُ

١٤ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ / ١٩-١٠-٢٠١٣م.

وَأَعِدُّوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ لِقِتَالِ الْكَافِرِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ  
الْأَسْلِحَةِ وَالْأَلَاتِ الَّتِي تَكُونُ لَكُمْ قُوَّةً فِي الْحَرْبِ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ.

وَأَعِدُّوا مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَرْبُوطَةِ الْمَجْهَرَةِ لِلْهُجُومِ وَالْإِنْقِضَاضِ  
عَلَى الْعَدُوِّ بَعْدَ إِثْخَانِهِ وَتَدْمِيرِهِ بِقُوَّةِ الرَّمِيِّ، تُخَوِّفُونَ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْمُرْهَبَةِ، وَذَلِكَ  
الرِّبَاطِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوِّكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَتُرْهَبُونَ آخِرِينَ مِنْ غَيْرِ الْأَعْدَاءِ الظَّاهِرِينَ  
وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، لَا تَظْهَرُ لَكُمْ عَدَاوَتُهُمْ الْآنَ، لَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُمْ.

وَإِعْدَادُ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِنْفَاقِ الْمَالِيِّ، فَانْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،  
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ أَجْرَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيَعْجَلْ لَكُمْ  
عَوَضُهُ فِي الدُّنْيَا؛ بَرَكَهٌ فِي رِزْقِكُمْ وَنَمَاءٌ فِي أَمْوَالِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَنْقُصُونَ مِنْ  
ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا. (\*)



(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الأنفال: ٦٠].

## مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ: الْعَمَلُ الْجَادُّ

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ الْإِسْلَامَ يَدْعُو الْمُؤْمِنِينَ بِهِ إِلَى الْعَمَلِ، وَيَحْتُمُّهُمْ عَلَى السَّعْيِ  
وَالْتَكْسِبِ، فَهُوَ دِينٌ يُؤَكِّدُ عَلَى الْحَرَكََةِ وَالْحَيَوِيَّةِ، وَيَذْمُ الْكَسَلَ وَالْخُمُولَ  
وَالِاتِّكَالِيَّةَ؛ إِذْ لَا مَكَانَ فِيهِ لِلِاسْتِرْخَاءِ وَالْبَطَالَةِ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَى الْآخِرِينَ  
وَاسْتِجْدَائِهِمْ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ.

فَالْإِسْلَامُ دِينُ عِبَادَةٍ وَعَمَلٍ، يَحْتُّ الْجَمِيعَ عَلَى الْإِنْتِاجِ وَالْإِبْدَاعِ، وَيَهَيْبُ  
بِفِئَاتِ الْمُجْتَمَعِ كَافَّةً أَنْ تَنْهَضَ وَتَعْمَلَ بِإِتْقَانٍ، وَيَقُومُ كُلُّ بَدْوَرِهِ الَّذِي أَقَامَهُ اللَّهُ  
فِيهِ؛ لِنَفْعِ الْأُمَّةِ وَإِفَادَتِهَا.

وَلَمْ يُحَدِّدِ الْإِسْلَامُ الْعَمَلَ فِي شَهْرٍ دُونَ آخَرَ، بَلْ حَثَّ عَلَيْهِ فِي الشُّهُورِ  
وَالْأَيَّامِ كُلِّهَا.

وَلَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي صَحَابَتِهِ الْكِرَامِ رضي الله عنهم أَعْظَمُ قُدْوَةٍ، وَخَيْرُ أُسْوَةٍ،  
كَانَتْ حَيَاتُهُمْ كُلُّهَا جِدًّا وَاجْتِهَادًا، وَعَمَلًا وَحَيَوِيَّةً وَنَشَاطًا. (\*)

(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ - بِاخْتِصَارٍ يَسِيرٍ - مِنْ خُطْبَةٍ: «انْتِصَارَاتُ الْمُسْلِمِينَ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ

\* لَقَدْ حَثَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْعَمَلِ، وَطَلَبَ الرِّزْقَ - رِزْقِ اللَّهِ - بِأَنَاةٍ وَرَفْقٍ، مَعَ صَبْرٍ وَكَدْحٍ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، يَعْنِي: فَإِذَا فُرِغَ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَتَفَرَّقُوا فِي الْأَرْضِ؛ لِلتَّجَارَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي حَوَائِجِكُمْ وَمَطَالِبِ حَيَاتِكُمْ، وَمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ.

وَاطْلُبُوا رِزْقَ اللَّهِ بِأَنَاةٍ وَرَفْقٍ، مَعَ صَبْرٍ وَكَدْحٍ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ؛ رَغْبَةً فِي الْفَوْزِ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. (\*)

حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْعَمَلِ، وَإِعْمَارِ الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ لِحْظَةٍ فِي الْحَيَاةِ: فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»<sup>(١)</sup>. وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ.

(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [سورة الجمعة: ١٠].

(١) «الأدب المفرد» للبخاري: رقم ٤٧٩، وَأَخْرَجَهُ أَيضًا: الطَّيَالِسِيُّ فِي «المسند»: ٣ / ٥٤٥ رقم (٢١٨١)، وَأَحْمَدُ فِي «المسند»: ٣ / ١٨٣ - ١٨٤ و ١٩١، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ كَمَا فِي الْمُنْتَخَبِ مِنْ «المسند»: ص ٣٦٦، رقم (١٢١٦)، وَالْبَزَّازُ فِي «المسند»: ١٤ / ١٧، رقم (٧٤٠٨)، وَابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ»: ٦ / ٧٥ - ٧٦، تَرْجُمَةُ (١٢٠٨)، مِنْ حَدِيثِ: أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْحَدِيثُ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ»: ١ / ٣٨، رقم (٩)، وَفِي «صَحِيحِ الْأَدبِ الْمَفْرَدِ»: ص ١٨١، رقم (٣٧١).

و«فَسِيلَةٌ»: هِيَ النَّخْلَةُ الصَّغِيرَةُ.

هَذَا فِيهِ مُبَالَغَةٌ فِي الْحَثِّ عَلَى غَرْسِ الْأَشْجَارِ وَحَفْرِ الْأَنْهَارِ؛ لِتَبْقَى هَذِهِ الدَّارُ عَامِرَةً إِلَى آخِرِ أَمْدِهَا الْمَحْدُودِ الْمَعْلُومِ عِنْدَ خَالِقِهَا، فَكَمَا غَرَسَ لَكَ غَيْرَكَ؛ فَانْتَفَعْتَ بِهِ، فَاغْرِسْ أَنْتَ لِمَنْ يَجِيءُ بَعْدَكَ؛ لِيَتَّفِعَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا صُبَابَةٌ، وَذَلِكَ بِهَذَا الْقَصْدِ لَا يُنَافِي الزُّهْدَ وَالتَّقْلُّلَ مِنَ الدُّنْيَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ أَحَادِيثَ فِي اسْتِثْمَارِ الْأَرْضِ وَزَرْعِهَا، وَالْحَثُّ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا أَدَلَّ عَلَى الْحُضِّ عَلَى الْإِسْتِثْمَارِ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي مَعَنَا؛ فَإِنَّ فِيهِ تَرْغِيبًا عَظِيمًا عَلَى اغْتِنَامِ آخِرِ فُرْصَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ زَرْعِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَيَجْرِي لَهُ أَجْرُهُ، وَتُكْتَبُ لَهُ صَدَقَتُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَوْلُهُ: «فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا تَقَوْمَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»: وَهَذَا - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ - يَتَطَلَّبُ زَمَانًا مَمْدُودًا؛ لِكَيْ يَتَحَصَّلَ الْمَرْءُ عَلَى نَتِيجَتِهِ وَعَائِدِهِ؛ لِأَنَّ النَّخْلَةَ يَسْتَمِرُّ نُمُوهَا حَتَّى إِثْمَارِهَا سَنَوَاتٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا تَقَوْمَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا».

مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا يَقِينًا حِينَئِذٍ، وَلَكِنَّهُ ﷺ يَحُثُّ عَلَى غَرْسِ الْأَشْجَارِ وَحَفْرِ الْأَنْهَارِ، وَعَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ النَّافِعِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ، وَإِنْ ظَهَرَتْ نَتَائِجُهُ وَعَوَاقِبُهُ عَلَى الْمَدَى الْبَعِيدِ، وَكَانَتْ نَتَائِجُهُ وَثِمَارُهُ بَطِيئَةً جِدًّا.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ: التَّرغِيبُ الْعَظِيمُ عَلَى اغْتِنَامِ آخِرِ فُرْصَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ زَرْعِ مَا يَنْتَفَعُ بِهِ النَّاسُ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَيَجْرِي لَهُ أَجْرُهُ وَتُكْتَبُ لَهُ صَدَقَتُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْحَثُّ عَلَى الطَّاعَةِ إِلَى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ. (\*)



(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ «شَرْحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» (حَدِيثِ ٤٧٩ ص ٢١٢٥ - ٢١٢٨).

## مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّمِ: التَّوْبَةُ مِنَ الْمُعَاصِي وَالذُّنُوبِ

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ مَعْصِيَةَ اللَّهِ تَعَالَى تُزِيلُ النَّعَمَ، وَتُحِلُّ النَّقَمَ، وَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، «فَمَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ»<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»<sup>(٢)</sup> مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضَيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ

(١) ذكره ابن القيم من قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونسبه شيخ الإسلام إلى عمر بن عبد العزيز كما في «مجموع الفتاوى»: ٨ / ١٦٣.

وقد ورد هذا الدعاء من قول العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فأخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم»: ٣ / ١٠٢ و ١٠٣، رقم (٧٢٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ٢٦ / ٣٥٨ و ٣٥٧، ترجمة (٣١٠٦)، بإسناد ضعيف: أَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَوْمًا اسْتَسْقَى بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: لَمَّا فَرَّغَ عُمَرُ مِنْ دُعَائِهِ؛ قَالَ الْعَبَّاسُ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزَلْ بَلَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا يُكْشَفُ إِلَّا بِتَوْبَةٍ...» فذكره.

(٢) «سنن أبي داود»: ٣ / ٢٧٤، رقم (٣٤٦٢)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والحديث صححه بمجموع طرقه الألباني في «الصحيحة»: ١ / ٤٢، رقم (١١).

الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذَلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ». وَالْحَدِيثُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»، وَفِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ»، وَفِي غَيْرِهِمَا.

«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ»: وَهِيَ السَّلْعَةُ تَدْخُلُ بَيْنَ أَخْذِ وَعَطَاءٍ، ثُمَّ تَخْرُجُ مَعَ زِيَادَةٍ فِي نَظِيرِ الْأَجْلِ بِلا مَقَابِلِ.

وَهِيَ حِيلَةٌ مِنَ الْحَيْلِ يَأْخُذُ بِهَا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، يَشْتَرِي سِلْعَةً بِالْأَلْفِ إِلَى أَجَلٍ، ثُمَّ يَشْتَرِيهَا مِمَّنْ بَاعَهَا لَهُ بِثَمَانِمِئَةٍ -مَثَلًا- نَقْدًا فِي الْحَالِ، فَيَأْخُذُ ثَمَانِمِئَةً وَيَبْقَى فِي ذِمَّتِهِ أَلْفٌ؛ فَدَخَلَتِ السَّلْعَةُ وَخَرَجَتْ -حِيلَةً- مِنْ أَجْلِ تَحْلِيلِ الرَّبَا، وَهِيَ هَاتِ!

إِذَا فَسَدَتْ حَيَاتُكُمْ الْإِقْتِصَادِيَّةَ، «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ».

«وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ»: فَصَرْتُمْ تَابِعِينَ حَتَّى لِلْبَقَرِ، وَانْحَطَّتْ هِمَمُكُمْ، «وَرَضَيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذَلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

فَجَعَلَ رَفَعَ الذَّلَّ مَرُهُونًا بِالرُّجُوعِ إِلَى الدِّينِ:

\* فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الدِّينِ الْمَرْجُوعِ إِلَيْهِ.

\* وَمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ.

قَدْ يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ الدِّينَ الْمَرْجُوعَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْلُكُ إِلَى هَذَا الدِّينِ السَّبِيلَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ، فَلَا يَكُونُ مُحْسِنًا وَلَا يُرْفَعُ الذَّلُّ عَنْهُ، وَإِنَّمَا لَا بُدَّ مِنَ

الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الدِّينِ الْمَرْجُوعِ إِلَيْهِ وَمَعْرِفَةِ السَّبِيلِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ.

فَإِذَا تَحَصَّلَ الْمُجْتَمَعُ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، فَارْجَعَ إِلَى دِينِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ رَفَعَ اللَّهُ مَا سَلَطَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّلِّ حَتَّى يَعُودَ إِلَى عِزِّهِ وَعِزَّتِهِ، وَرَفَعَتْهُ وَسُودِدَهُ وَمَجَّدَهُ.

قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ مَا بِنَفْسِهِ، فَيُغَيِّرُ طَاعَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ، وَشُكْرَ اللَّهِ بِكُفْرِهِ، وَأَسْبَابَ رِضَاهُ تَعَالَى بِأَسْبَابِ سَخَطِهِ، فَإِذَا غَيَّرَ غَيْرَ عَلَيْهِ جَزَاءً وَفَاقًا - وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ -.

فَمَنْ صَفَّى صُفْيَى لَهُ، وَمَنْ كَدَّرَ كُدَّرَ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup>، وَمَنْ شَابَ شَيْبَ لَهُ، فَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسِنَ إِلَيْهِ، وَعَلَى مَنْ أَسَاءَ السُّوَأَى - وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ -.

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة»: ٢ / ٣٨٤، من قول أبي سليمان الداراني، وأخرج نحوه ابن أبي شيبة في «المصنف»: ٢٦ / ١٤، رقم (٣٥٥٩٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»: ١٠ / ٣٩٥، بإسناد صحيح، عن مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ، قَالَ: «مَنْ

قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

الْفَسَادُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ الْمُرَادُ بِهِ: الذُّنُوبُ وَمُوجِبَاتُهَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؛ فَهَذَا حَالُنَا!!

﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، وَإِنَّمَا أَذَاقْنَا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ مِنْ أَعْمَالِنَا، وَلَوْ أَذَاقْنَا كُلَّ أَعْمَالِنَا لَمَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ.

وَكُلَّمَا أَحْدَثَ الْعِبَادُ ذَنْبًا، أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ عُقُوبَةً؛ فَالْمَعَاصِي تُحْدِثُ فِي الْأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَسَادِ؛ فِي الْمِيَاهِ، وَفِي الْهَوَاءِ، وَفِي الزَّرْعِ وَالشَّمَارِ، وَالْمَسَاكِينِ وَالنُّفُوسِ، وَالتَّصَوُّرَاتِ وَحَرَكَةِ الْحَيَاةِ.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، وَجَعَلَ الْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ سَبَبًا لِنِقْمَتِهِ وَعَذَابِهِ وَحُلُولِ عِقَابِهِ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

أَصْفَى صُنْفِي لَهُ، وَمَنْ خَلَطَ خُلِطَ عَلَيْهِ، وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، وَذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ نَحْوَهُ أَيْضًا.

أَيَّ أَمْرٍ نَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا أَمْرًا قَدْرِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَقِيلَ: سَخَّرَهُمْ إِلَىٰ فِعْلِ الْفَوَاحِشِ، فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ، وَقِيلَ: أَمَرْنَاَهُمْ بِالطَّاعَاتِ فَفَعَلُوا الْفَوَاحِشَ، فَاسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (\*).

عِبَادَ اللَّهِ! لَنْ تُفْلِحَ الْأُمَّةُ وَلَنْ تَصِلَ إِلَىٰ غَرَضِهَا، وَلَنْ تُحْصَلَ مَقْصُودَهَا إِلَّا بِالْعُودَةِ إِلَىٰ كِتَابِ رَبِّهَا وَسُنَّةِ نَبِيِّهَا ﷺ بِفَهْمِ سَلَفِهَا الصَّالِحِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَجْمَعِينَ - .

فَهَذِهِ سَبِيلُ النِّجَاةِ، لَا سَبِيلَ لِلنِّجَاةِ سِوَاهَا، وَأَمَّا التَّخَبُّطُ، وَأَمَّا هَذَا الْهَرَجُ الَّذِي تُعَانِي مِنْهُ الْأُمَّةُ؛ فَهَذَا هُوَ الْمَضِيقُ الَّذِي لَا مَخْرَجَ لَهُ، وَالْمَأْزِقُ الَّذِي لَا نِجَاةَ مِنْهُ إِلَّا بِأَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ بِلَا تَخَالُفٍ وَلَا تَدَابُرٍ، وَلَا شَحْنَاءٍ وَلَا بَغْضَاءٍ. (\*)(٢).

الْأَضْلُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تُفْسِدُ الرُّوحَ - وَهِيَ سَمُّ الرُّوحِ -، كَمَا أَنَّ الْبَدْنَ يَتَعَرَّضُ لِلْمَرَضِ بِأَسْبَابِهِ وَمُشَخَّصَاتِهِ وَعِلَلِهِ؛ فَيَمْرُضُ؛ فَلَا يَسْتَقِيمُ عَلَىٰ قَانُونِ الصِّحَّةِ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ الْحَيَاةُ، فَكَذَلِكَ الْمَعْصِيَةُ تَدْخُلُ عَلَىٰ الْأَرْوَاحِ وَعَلَىٰ الْقُلُوبِ، ثُمَّ هِيَ عَامِلَةٌ عَلَىٰ مُسْتَوَى الْفَرْدِ وَعَلَىٰ مُسْتَوَى الْمَجْمُوعِ.

(\* ) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «إِنَّ غَدًا لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ» - الْجُمُعَةُ ٢٥ مِنْ رَجَبِ ١٤٣٣ هـ / ١٥ - ٠٦ - ٢٠١٢ م.

(\* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَرْكِيَةُ النَّفْسِ وَتَحْرِيرُ الْقُدْسِ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ١٤٣٩ هـ / ١٥ - ١٢ - ٢٠١٧ م.

سُبُلُ بِنَاءِ الْأُمَمِ وَدَوْرُ الْفَرْدِ فِيهَا

أُمَمًا يُذِلُّهَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَيَخْسِفُ بِهَا الْأَرْضَ، وَأُمَمًا يُعْرِفُهَا اللَّهُ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ بِالْمَاءِ حَتَّى يَصِيرَ الْمَاءُ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَأُمَمًا يُمَزِّقُهَا رَبُّكَ  
بِالصَّيْحَةِ حَتَّى تَتَقَطَّعَ فِي الصُّدُورِ نِيَاطُ الْقُلُوبِ.

كُلُّ ذَلِكَ بِشُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ.

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ- فِي «الزُّهْدِ» (١)، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ  
رضي الله عنه، قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُسُ؛ فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا؛ فَبَكَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، رَأَيْتُ  
أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي.

فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ! مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟!!

فَقَالَ: وَيْحَكَ -يَا جُبَيْرُ-! مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَى اللَّهِ تَرَكُوا أَمْرَهُ؛ بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ  
ظَاهِرَةٌ قَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ؛ إِذْ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ؛ فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى».

فَمَا عَلَى النَّاسِ إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِلَّا؛ فَالْجَمِيعُ فِي سَفِينَةٍ  
وَاحِدَةٍ، وَوَيْلٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْرِقَ السَّفِينَةَ؛ لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا -رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا  
فَعَلَّ السُّفَهَاءُ مِنَّا-.

(١) «الزهد» لأحمد: ص ١١٧، رقم (٧٦٣)، وأخرجه أيضا الفزاري في «السير»: ص ١٤٢،

رقم (١٠٨)، وسعيد بن منصور في «السنن»: ٢/ ٢٩٠ و ٢٩١، رقم (٢٦٦٠)، وابن أبي

الدنيا في «العقوبات» ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا الحديثية: ٤/ ١٠٥، رقم (٢)،

والطبري في «تاريخ الرسل والملوك»: ٤/ ٢٦٢، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»:

١/ ٢١٦ و ٢١٧، بإسناد صحيح.

تُوبُوا لِلَّهِ وَأَحْدِثُوا لِلَّهِ تَوْبَةً، وَإِلَّا؛ فَإِنَّ الْكُلَّ فِي سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَسَيَغْرَقُ  
 الْجَمْعُ كُلُّهُ - لَا مَحَالَةَ - إِنْ لَمْ يَتَدَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْجَمْعَ بِرَحْمَتِهِ.  
 فَاللَّهُمَّ! تَدَارَكْنَا جَمِيعًا بِرَحْمَتِكَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (\*)



(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ حُطْبَةٍ: «وَاللِّظَالِمِينَ أَمْثَالَهَا».

## دَوْرُ الْفَرْدِ فِي بِنَاءِ أُمَّتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ

\* أَعْظَمُ مُشَارَكَةٍ لِلْمُسْلِمِ فِي بِنَاءِ أُمَّتِهِ: تَعَلُّمُ التَّوْحِيدِ، وَتَحْقِيقُهُ، وَالِدَعْوَةُ إِلَيْهِ:

عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَهْتَمَّ بِالتَّوْحِيدِ أَكْثَرَ مِنْ اِهْتِمَامِهِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنَّفْسِ،  
وَأَنْ يَعْتَنِيَ بِهِ عِنَايَةً تَامَّةً، يَدْرُسُهُ وَيُدْرِسُهُ، وَيَحَاضِرُ فِيهِ -إِنْ اسْتَطَاعَ-، وَيَدْعُو  
إِلَيْهِ، رَضِيَ مَنْ رَضِيَ، وَسَخِطَ مَنْ سَخِطَ-

فَالتَّوْحِيدُ أَسَاسُ دِينِنَا، وَهُوَ مَبْنَى عَقِيدَتِنَا، وَنَحْنُ أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَى أَنْ  
نَتَعَلَّمَهُ، وَإِلَى أَنْ نَتَدَارَسَهُ، وَأَنْ نُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ، وَأَنْ نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَهْتَمَّ بِذَلِكَ، وَأَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي  
قَطُّ أَنْ يَقُولَ الْمَرْءُ: إِنِّي آتِي بِالتَّوْحِيدِ فِي نَفْسِي، ثُمَّ يَرَى الشَّرْكَ حَوْلَهُ؛ فَلَا  
يُحَذِّرُ مِنْهُ، وَلَا يَتَبَرَّأُ مِنْهُ وَمِنْ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُوَحِّدًا حَتَّى  
يَأْتِيَ بِالْأَمْرَيْنِ مَعًا.

فَلَا بُدَّ مِنْ دَعْوَةِ النَّاسِ جَمِيعًا إِلَى التَّوْحِيدِ.

الْكَفَّارُ الْأَصْلِيُّونَ يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ شَيْئًا  
مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِكٍ أَكْبَرَ، أَوْ شَرِكٍ أَصْغَرَ فَإِنَّهُ يُدْعَى أَيْضًا إِلَى التَّوْحِيدِ.

وَالْعَوَامُّ يُدْعَوْنَ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَيُحَذَّرُونَ مِنَ الشَّرْكِ، وَطَلَّابُ الْعِلْمِ  
كَذَلِكَ.

الدُّنْيَا كُلُّهَا تَحْتَاجُ إِلَى الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلَا حَيَاةَ إِلَّا بِهِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا  
بِتَحْقِيقِهِ.

الْمُسْلِمُونَ يَحْتَاجُونَ إِلَى بَيَانِ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ.

فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَبْدَأَ بِهَذَا الْأَمْرِ، نَدْرُسُهُ، وَنَحَقِّقُهُ، وَنَتَضَلَّعَ بِهِ، وَنَدْعُوَ إِلَيْهِ،  
وَنُحَذِّرُ مِنْ نَقِيضِهِ، وَنَتَّبِرُ مِنْهُ - وَهُوَ الشَّرْكَ - كَمَا نَتَّبِرُ مِنْ أَهْلِهِ.

لَا يَصِحُّ لَنَا تَوْحِيدٌ إِلَّا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ، وَهَذِهِ هِيَ الْعَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي  
هِيَ أَسَاسُ الدِّينِ وَقَاعِدَةُ الشَّرِيعَةِ، وَلَا يَصِحُّ عَمَلٌ إِلَّا بِتَصْحِيحِهَا مَهْمَا كَانَ  
ذَلِكَ الْعَمَلُ.

وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَالَ فِي الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ غَيْرِ عَقِيدَةٍ  
صَّحِيحَةٍ: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وَالْهَبَاءُ: هُوَ الْغُبَارُ الَّذِي يُرَى فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ.

فَأَعْمَالُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَبَاءٌ؛ لِأَنَّهَا مَا بُنِيَتْ عَلَى الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ.

وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً

حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور: ٣٩].

الرَّجُلُ الَّذِي يُصِيبُهُ الْعَطَشُ إِذَا نَظَرَ السَّرَابَ فَجَاءَهُ؛ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، وَتَلَحُّقُهُ الْحَسْرَةُ، وَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ؛ أَعْمَالُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً إِلَّا أَنَّهَا لَا تُوَسِّسُ عَلَى الْعَقِيدَةِ وَالْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هَبَاءً مَثُورًا، وَجَعَلَهَا كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً.

الْمُشْرِكُ وَالْكَافِرُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - إِذَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْحَسَنَاتِ، وَبِحَاجَةٍ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا، ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَعَلُّمِ التَّوْحِيدِ، وَأَلَّا نُقَدِّمَ عَلَى تَعَلُّمِهِ شَيْئًا.

وَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَحَقَّقَ بِالتَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ رَبَّمَا عَرَفَ التَّوْحِيدَ مَعْرِفَةً، وَحَصَلَهُ تَحْصِيلًا، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ بِهِ، وَالْأَصْلُ أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا شُرِّفَ لِأَجْلِ الْعَمَلِ بِهِ.

فَعَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَالْبِرَاءَةِ مِنَ الشَّرْكِ.

وَعَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ دُعَاةَ التَّوْحِيدِ قَلِيلٌ، وَلِذَلِكَ عَمَّ الْخَرَابُ وَالذَّمَامُ، وَانْتَشَرَتِ الْفَوْضَى وَالْبَوَارُ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ عُرُوفٍ مَنْ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ - بِزَعْمِهِمْ - عَنْ دَعْوَةِ أَقْوَامِهِمْ إِلَى أَوَّلِ أَمْرِ بَدَأَتْ بِهِ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الدِّينِ وَهُوَ تَوْحِيدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

كُلُّ مَا عَدَاهُ فَهُوَ تَابِعٌ لَهُ، وَمُكَمَّلٌ لَهُ.

نَدْعُو إِلَى تَصْحِيحِ الْعَقِيدَةِ وَالْعِنَايَةِ بِهَا، نَدْعُو إِلَى تَعْلُمِهَا، وَتَعْلِيمِهَا، وَنَشْرِ كُتُبِهَا، وَالِدَّعْوَةَ إِلَيْهَا، وَالْبِرَاءَةَ مِمَّا يُضَادُّهَا وَيُخَالِفُهَا، ثُمَّ يَتَّبِعُ بَعْدَ ذَلِكَ بَقِيَّةَ أَوْامِرِ الدِّينِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

الْعَقِيدَةُ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ.

عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَلَا يَكْتَفِي بِتَعْلُمِهِ حَتَّى يُحَقِّقَهُ، وَلَا يَكْتَفِي بِتَعْلُمِهِ وَتَحْقِيقِهِ حَتَّى يَدْعُو إِلَيْهِ، وَحَتَّى يَتَّبِعَ مِنْ نَقِيضِهِ، وَمِمَّنْ أَخَذَ بِنَقِيضِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بَيَّنَّ أَنَّ النَّاجِينَ مِنَ الْخَسَارِ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ.

وَهَذِهِ هِيَ دَعْوَةُ الْمُوَحِّدِينَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَلْحَقُهُمْ خُسْرَانٌ.

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿[العصر: ١ - ٣]: هُوَ لَا هُمْ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وَعَمِلُوا بِهِ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾: وَدَعَوْا إِلَيْهِ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: فَصَبَرُوا عَلَى الْأَذَى فِيهِ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ - يَقُولُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهَا: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لِلنَّاسِ لَوْ سَعَتْهُمْ»<sup>(١)</sup>. وَتَلَا سُورَةَ الْعَصْرِ.

(١) ذكر نحوه النووي في «رياض الصالحين»: باب التعاون على البر والتقوى، ص ٨٠، وفي «تهذيب الأسماء»: ٥٤ / ١، وابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: ٥٦ / ١، وابن كثير في «تفسير القرآن العظيم»: ٢٠٣ / ١ و ٤٧٩ / ٨.

وَهِيَ مِنْهَاجُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: «إِيمَانٌ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ، وَدَعْوَةٌ إِلَى ذَلِكَ، وَصَبْرٌ عَلَى الْأَذَى فِيهِ».

دِينُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُؤَسَّسٌ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْكَبِيرِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ. التَّوْحِيدُ: هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالْأَلُوْهِيَّةِ، وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ. وَإِذَا حَقَّقْنَا ذَلِكَ، وَدَعَوْنَا إِلَيْهِ، وَصَبَرْنَا عَلَى الْأَذَى فِي تِلْكَ الدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا التَّوْحِيدِ الْعَظِيمِ؛ أَنْقَذْنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْقَذَ أُمَّتَنَا، وَحَقَّقَ لَنَا وَلَهَا سَعَادَتَنَا. نَسْأَلُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ. (\*)

\* طَلَبُ الْمُسْلِمِ الْعِلْمَ النَّافِعَ مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ أُمَّتِهِ:

عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنْ يَسْتَلِكَ سَبِيلَ طَلَبِ الْعِلْمِ عَلَى نَهْجِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَفِي هَذَا النَّجَاةِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا فِيهِ. فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ النَّجَاةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُمَا مَعْدِنُ الْعِلْمِ وَأَصْلُهُ، فَهَمَّا تَرَكَ الْإِنْسَانُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَتَنَكَّبَهُمَا وَاسْتَدْبَرَهُمَا وَجَعَلَهُمَا دَبْرَ أُذُنَيْهِ وَخَلْفَ ظَهْرِهِ؛ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا.

فَمَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ حَقًّا وَصِدْقًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا -الَّتِي تَمُوجُ بِالْفِتَنِ مَوْجِ الْبَحْرِ- مَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ؛ فَعَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. (\*) (٢).

(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَى: «الْقَوْلُ الْمُفِيدُ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - السَّبْتُ ١٥ مِنْ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٣هـ / ١٠-١٢-٢٠١١م.

(\*) (٢) مِنْ خُطْبَةٍ: «حَيْثُ وَقَعَ نَفْعٌ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٤هـ / ١٦-١١-٢٠١٢م.

\* دَعْوَةُ الْمُسْلِمِ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ أُمَّتِهِ:

إِنَّ كُلَّ مُكَلَّفٍ وَجَبَ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ، كَمَا قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

فَمَنْ اتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا إِلَى اللَّهِ، وَاتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا إِلَى اللَّهِ، كُلُّ بِحَسَبِهِ، عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ، لَا يَتَزَيَّدُ، وَإِلَّا كَانَ دَاعِيًا إِلَى غَيْرِ رَبِّهِ، وَإِلَى غَيْرِ صِرَاطِهِ، وَإِلَى غَيْرِ دِينِهِ، قَائِلًا عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى قَدْرِ عِلْمِهِ وَعَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ مَجَالٍ. (\*).

إِنَّ مَسْئُولِيَّةَ الْمُسْلِمِ عَظِيمَةٌ، وَمَعَكَ طَوْقُ النَّجَاةِ، وَالنَّاسُ يَغْرُقُونَ تَحْتَ عَيْنِكَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَمُدُّ لَهُمْ يَدًا بِعَوْنٍ!!

دِينُ اللَّهِ يَسْتَنْقِذُ الْبَشَرِيَّةَ مِمَّا تَرَدَّتْ فِيهِ.

دِينُ اللَّهِ - وَحْدَهُ - يُنْقِذُ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ مِمَّا بَلَّغُوهُ مِنْ هَذَا الْإِنْحِطَاطِ الْهَابِطِ.

دِينُ اللَّهِ، عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُبَلِّغُوهُ خَلْقَ اللَّهِ، فِي أَرْضِ اللَّهِ، عَلَى مِنْهَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِإِنْقَاذِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ دَمَارٍ تَبْدُو عِلَائِمُهُ، وَخَرَابٍ تَتَّصِحُّ مَعَالِمُهُ. (\* / ٢).

(\* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ سَفِينَةُ النَّجَاةِ» - الْجُمُعَةُ ٨ مِنْ صَفَرِ ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م.

(\* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ سَفِينَةُ النَّجَاةِ» - الْجُمُعَةُ ٨ مِنْ صَفَرِ ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م.

\* مِنْ سُبُلِ مُشَارَكَةِ الْمُسْلِمِ فِي بِنَاءِ أُمَّتِهِ: عَمَلُهُ بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ وَأَمَانَةٍ:

إِنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَمَرَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ، فَالْعِبَادَاتُ أَمَانَةٌ، وَالْخِيَانَةُ فِيهَا أَنْ تُنْتَقَصَ، فَإِذَا انْتَقَصَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعِبَادَةِ فَهُوَ خَائِنٌ.

وَالْمُعَامَلَاتُ أَمَانَةٌ، وَمَا يُسْتَأْمَنُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ أَمَانَةٌ، وَالسِّرُّ أَمَانَةٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ تَعَلَّقَ بِهِ أَمْرٌ وَنَهِيَ فِي دِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهُوَ أَمَانَةٌ، وَالْخِيَانَةُ فِيهِ أَلَّا يُؤْتَى بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ.

فَإِذَا كَانَ إِنْسَانٌ فِي عَمَلٍ، فَالْعَمَلُ الَّذِي اسْتَوْمِنَ عَلَيْهِ أَمَانَةٌ، فَإِذَا خَانَ فِيهِ فَهُوَ خَائِنٌ، وَجَزَاءُ الْخَائِنِ مَعْلُومٌ (\*).

عِبَادَ اللَّهِ! اْعْمَلُوا، وَاجْتَهِدُوا فِي الْعَمَلِ، فَإِنَّهُ لَا خُرُوجَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ مِنْ أَرْزَمَةٍ إِلَّا بِكَلِمَتَيْنِ:

أَنْ يَعْْمَلَ كُلُّ مَنَّا عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ، لَا عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ حَتَّى هَذِهِ لَا يَعْْمَلُونَهَا، يَعْنِي هُمْ لَا يَعْْمَلُونَ أَصْلًا، لَا عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ وَلَا عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ!! هُمْ تَعَوَّدُوا عَلَى الْأَخْذِ مِنْ غَيْرِ عَطَاءٍ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ -، وَهَذَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ ﷻ، وَلَا يَرْضَاهُ هَذَا الدِّينُ الْحَنِيفُ (\*). (٢/١).

(\* مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «هَدَايَا الْمُوظَّفِينَ» - الْجُمُعَةُ ٥ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ١٤٣١هـ / ١٩ - ٢٠١٠م.

(\* (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةٍ: «دَاعِشُ وَالْإِخْوَانُ» - الْأَحَدُ ٢٨ مِنْ شَوَّالِ ١٤٣٥هـ / ٢٤ / ٨ / ٢٠١٤م.

\* مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْمُسْلِمِ لِأُمَّتِهِ: أَنْ يُغَيِّرَ مِنْ نَفْسِهِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ أُخْرَىٰ مُنَاقِضَةً لِلأُولَىٰ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ سَيِّئٍ إِلَىٰ حَسَنٍ؛ غَيَّرَ اللَّهُ أَحْوَالَهُمْ مِنْ سَيِّئٍ إِلَىٰ حَسَنٍ، وَإِنْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ حَسَنٍ إِلَىٰ قَبِيحٍ؛ غَيَّرَ اللَّهُ أَحْوَالَهُمْ، وَأَحَلَّ بِهِمْ نِقْمَتَهُ. (\*)

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَتَغَيَّرَ، أَنْ نَتَحَرَّرَ مِنْ أَسْرِ الْعَادَاتِ وَمِنْ قَيْدِ التَّقَالِيدِ الَّتِي قَدْ أَوْثَقَتْ أَرْجُلَنَا فِي الْأَرْضِ بِسَلْسِلِ تَمِيدٍ الْأَرْضِ وَلَا تَمِيدُ.

يُرِيدُ مِنَّا رَبُّنَا أَنْ نَتَغَيَّرَ، وَأَنْ نَتَحَرَّرَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَىٰ، وَأَنْ نَخْرُجَ مِنْ قَبْضَةِ الْعَادَاتِ إِلَىٰ مَرْضَاةِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ سُنَّةِ سَيِّدِ الْخَلْقِ ﷺ. (\*) (٢/).



(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةٍ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُحْتَضِرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الرعد: ١١].

(\*) (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ».

## الِاسْتِقَامَةُ عَلَى شَرَعِ اللَّهِ سَبِيلُ بِنَاءِ الْأُمَّةِ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلَّمَا اسْتَقَامَ الْعَبْدُ عَلَى شَرَعِ اللَّهِ؛ اسْتَقَامَتْ لَهُ الدُّنْيَا عَلَى مَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَضُرُّهُ - فَضْلًا عَنِ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ - وَيَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كُلَّ عَسِيرٍ، وَخَدَمَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَكَثُرَتْ فِي مُجْتَمَعِهِ الْخَيْرَاتُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَبُوا فَآخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وَقَالَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

إِنَّ الْكَلَامَ عَنِ السَّبِيلِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى سَبَابًا لِنَهْوِضِ الْأُمَّمِ، إِذَا أَخَذَتِ الْأُمَّمُ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ أَوْ بَعْضِهَا؛ كَانَ التَّفَاوُلُ بَيْنَهَا، وَكَانَ عُنْصُرُ الْإِيمَانِ مُؤَثَّرًا أَعْظَمَ تَأْثِيرٍ فِي تَفَوُّقِ أَهْلِهَا إِذَا أَخَذُوا بِالْمُمْكِنِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْآخَرَى، وَإِذَا فَرَطَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الْمُمْكِنَةِ؛ فَلَا يَلُومُوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. (\*)

(\*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ - بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ - مِنْ خُطْبَةٍ: «أَسْبَابُ انْهِيَارِ الدُّوَلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٨ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨ هـ / ٢٣-٦-٢٠١٧ م.

## الفهرس

- ٣ ..... مُقَدِّمَةٌ
- ٤ ..... بِنَاءُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ
- ٦ ..... أَعْظَمُ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ: الْإِيْمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ
- ٩ ..... التَّوْحِيدُ سَبِيلُ بِنَاءِ الْأُمَّةِ وَعِزَّتُهَا
- ١١ ..... \* رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَعْظَمُ الدَّعَاةِ إِلَى التَّوْحِيدِ
- ١٧ ..... حَالُ أُمَّةِ الْعَرَبِ قَبْلَ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ وَبَعْدَهَا
- ٢٠ ..... الدَّعْوَةُ إِلَى إِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ
- ٢٥ ..... تَمْكِينُ اللهِ لِلْأَنْبِيَاءِ بِتَحْقِيقِهِمُ التَّوْحِيدَ
- ٢٧ ..... مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ: الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ
- ٣٠ ..... الْعِلْمُ وَالْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّمِ
- ٣٢ ..... \* حَثُّ الْإِسْلَامِ عَلَى التَّرَقِّي فِي الْعُلُومِ الْمَادِيَّةِ، وَالصَّنَاعَاتِ النَّافِعَةِ
- ٣٣ ..... \* الْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّمِ
- ٣٥ ..... مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ: الْعَمَلُ الْجَادُّ

- حَثُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْعَمَلِ، وَإِعْمَارِ الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ لَحْظَةٍ فِي الْحَيَاةِ ..... ٣٦
- مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْأُمَّمِ: التَّوْبَةُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ ..... ٣٩
- دَوْرُ الْفَرْدِ فِي بِنَاءِ أُمَّتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ ..... ٤٦
- \* أَعْظَمُ مُشَارَكَةٍ لِلْمُسْلِمِ فِي بِنَاءِ أُمَّتِهِ: تَعَلُّمُ التَّوْحِيدِ، وَتَحْقِيقُهُ، وَالِدَّعْوَةُ إِلَيْهِ ..... ٤٦
- \* طَلَبُ الْمُسْلِمِ الْعِلْمَ النَّافِعَ مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ أُمَّتِهِ ..... ٥٠
- \* دَعْوَةُ الْمُسْلِمِ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ أُمَّتِهِ ..... ٥١
- \* مِنْ سُبُلِ مُشَارَكَةِ الْمُسْلِمِ فِي بِنَاءِ أُمَّتِهِ: عَمَلُهُ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ وَأَمَانَةٍ ..... ٥٢
- \* مِنْ سُبُلِ بِنَاءِ الْمُسْلِمِ لِأُمَّتِهِ: أَنْ يُغَيِّرَ مِنْ نَفْسِهِ ..... ٥٣
- الِاسْتِقَامَةُ عَلَى شَرْعِ اللَّهِ سَبِيلُ بِنَاءِ الْأُمَّةِ ..... ٥٤
- الْفِهْرُسُ ..... ٥٥

